المحاضرة السادسة:
أمّهات الكتب الأدبية

أولا: تمهيد:

الأدب كما قال ابن خلدون الأدب هو الأخذ من كلّ علم بطرف". وبناء عليه فإن أمهات[1] الكتب الأدبية هي أهمّ الكتب الّتي مثّلت خلاصة تجارب أصحابها وجمعت من كلّ علم بعض أطرافه، وهي كثيرة في أدبنا العربي. حاول ابن خلدون أن يحصرها في أربعة مؤلفات، حيث قال: إنّ أصول هذا الفن وأركانه أربعة: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، «الكامل» للمبرد، «البيان والتبيين» للجاحظ، و«الأمالي» لأبي علي القالي، وما سوى ذلك فتبّع لها، وفروع عنها". ولعلّ

ثانيا: أمهات الكتب الأدبية: أشهر هذه الكتب الأدبية هي:

1- الحيوان:

مؤلّفه هو أبو عثمان الجاحظ **(159- 255هـ) (776- 868م).** ويعدّ هذا الكتاب من أمّهات الكتب، فهو أوّل كتاب عربي جامع يتناول موضوع الحيوان بالبحث والدراسة، حيث راح الجاحظ يتتبّع ما في حياة الحيوان من الحجج على حكمة الله العجيبة وقدرته النادرة. غير أنّ طبيعة المنهج الّذي ينهجه الجاحظ في كتاباته جعلته لا يربط نفسه بهذا الجانب فقط، وإنّما تراه يتشعّب في حديثه حتّى يكاد يطرق كثيرا من العلوم والمعارف. فإذا الكتاب موسوعة أدبية وثقافية عامة جمع فيه صاحبه كثير من المعارف الدينية والأدبية والبلاغية والنقدية الطبيعية والفلسفية والطبية والتاريخية والجغرافية، معرجّا على عادات العرب وأحوالهم وسياساتهم، مدبّجا ذلك بالعديد من الأشعار والأمثال والنوادر.

2- البيان والتبيين:

صاحبه هو أبو عثمان **الجاحظ،** وقد ألّفه في أواخر حياته بعد تأليف كتاب الحيوان، ومن الصعوبة تحديد موضوعات الكتاب نظرا لأنّ الجاحظ يعتمد كغيره من علماء ذلك الزّمان على الاستطراد. بيد أنّنا يمكن أن حدّد للكتاب بابين كبيرين؛ باب الكلام الّذي يندرج تحته كلّ ما يتعلّق باللسان ومخارجه واختلاف طرق الأداء واللحن، والفصاحة، وباب البلاغة الّذي تشتمل تعريفاتها وما يتعلق بها، وذكر للخطابة وآدابها وشروطها وأصحابها وعلومها. وبين تضاعيف البابين مباحث عدّة كتراجم الأعلام من الشعراء والخطباء وغيرهم، وعقد الموازنات بين الشعراء والخطباء، والعديد من القضايا النقدية.

[1] - ورد في «تاج العروس»: الأم .. (ج : أُمّاتٌ) ذكر ابنُ دَرَسْتَوَيْه وغيرُه: أنّها لغةٌ ضعيفة، وإنّما الفصيحُ (أُمَّهاتٌ). وقال المُبَرِّد: الهاءُ من حروفِ الزِّيادة وهى مَزِيدَةٌ فى الأُمَّهات، والأَصْلُ الأَمُّ، وهو القَصْدُ. قال الأَزْهَرِيّ: وهذا هو الصواب؛ لأن الهاءَ مَزِيدَة فى الأُمهاتِ (أو هذهِ لِمَنْ يَعْقِلُ، وأُمَّاتٌ لِمَنْ لا يَعْقِلُ)، قال ابن بَرّي :هذا هو الأصل وأنشد الأزهريّ: لَقَدْ آلَيْتُ أَغْدِرُ فِي جَداعٍ ... وإن مُنِّيتُ أُمّاتِ الرِّباعِ

3- الكامل في اللغة والأدب:

مؤلّفه هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف **بالمبرد (210- 285هـ) (825-899م)**. ويشتمل الكتاب عل أبواب وكلّ باب على أكثر من موضوع، ما عدا بعض الأبواب التي يعقدها لمعالجة نوع واحد من الأخبار أو المختارات المتنوعة من غير ترتيب أو تنسيق مع استطرادات لا علاقة له بالفكرة الرئيسية للباب. وقد كانت اللغة والنحو وقضاياهما هي السّمة الواضحة في الكتاب فهو موسوعة لغوية كبيرة. كما أخذت البلاغة حقّها في الكتاب. اشتمل الكتاب على أخبار تاريخية هامة، وقدر وافر من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية، والكثير من الأمثال والخطب والكثير من أشعار العرب الجميلة وأخبارهم.

4- عيون الأخبار:

مؤلّفه هو أبو محمد بن قتيبة **الدِّينورِي (213- 276هـ) (828- 889م)**، وقد قسم كتابه عشرة أبواب، تدور حول موضوعات لا ينقصها التكامل. والكتب هي: السلطان، الحرب، السُّؤْدد، الطبائع والأخلاق المذمومة، العلم، الزهد، الإخوان، الحوائج، الطعام، النساء. وقد لقي الكتاب انتشاراً وقبولاً لدى القدماء، فرجعوا إليه ونقلوا عنه، وقد ألح ابن عبد ربه بصورة خاصة على «عيون الأخبار»، فأكثر الأخذ عنه حتى أن بعض أبواب العقد نَسخا من الكتاب.

5- كتاب العقد الفريد:

مؤلّفه هو أحمد بن محمد بن عبدربه **(246- 328هـ) (860- 940م)**، وقد قسمه إلى 25 كتاباً، وسمّى كل كتاب باسم جوهرة من جواهر العقد حيث تخيّله على شكل عقد والعقد كما نعلم يتألف من جانبين فجعل في كل جانب جوهرة تقابلها في الجانب الآخر جوهرة بنفس المسمى لكنها تختلف عن الأولى بزيادة الثانية وفي مجالها أيضاً ففي العقد لؤلؤتان وزبرجدتان وزمردتان وهكذا، أما واسطة العقد فأسماها الواسطة دون أن يميزها باسم جوهرة ذلك أنها تتوسط العقد فجعلها متميزة عنه. وقد جاءت جواهر العقد كالتالي: السلطان، الحروب، الأجواد والأصفاد، الوفود، مخاطبة الملوك، العلم والأدب، الأمثال، المواعظ والزهد، التعازي والمراثي، النسب وفضائل العرب، كلام الأعراب، الأجوبة، الخطب، التوقيعات والفصول وأخبار الكتبة، الخلفاء وتواريخهم وأيامهم، أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة، أيام العرب ووقائعهم، فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه، أعاريض الشعر وعلل القوافي، علم الألحان واختلاف الناس فيه، النساء وصفاتهن، المتنبئين والمحرّرين والبخلاء والطفيليين، طبائع الإنسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان، الطعام والشراب، الفكاهات والملح.

6- كتاب الآمالي:

مؤلّفه أبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي **(288- 356هـ) (901- 967م)**، وهو من أمهات كتب الأدب العربي، وقد ذكر القالي في مقدمته أسباب تأليفه للكتاب، والكيفية الّتي وضعه بها، وأهمّ ما تطرّق إليه. وقد قُسِّمه إلى مطالب، وخصّ كلّ مطلب بموضوع واحد، وتطول المطالب وتقصر، فتأتي بحسب ما يحتاجه المطلب من إيضاح أو بيان،. ويحتوي كتاب

الأمالي شأن الكتب العامة على روايات أدبية متنوّعة؛ فيها الشعر والأخبار والخطب والأحاديث النبوية والآيات القرآنية. إضافة إلى ذلك الكثير من الأراجيز العرب. وكان يتبع دقة في الإسناد والرواية، إذ لا يكاد المؤلف أن يذكر نصّا إلّا وقد وصل إسناده إلى صاحبه عن طريق الرواية الدقيقة.

7- كتاب الأغاني:

مؤلّفه هو أبو الفرج الأصبهاني **(284- 356هـ) (897- 966م)،** والكتاب عبارة عن موسوعة عامة جمع فيها صاحبها ثقافة عصره بجميع جوانبها، حيث ضمّ بين دفتيه المئات من الشعراء والمغنّين وأخبار العامة والخاصّة، فهو أجمع الكتب في باب التراجم، وفيه أخبار الخلفاء والملوك والقواد، ومن نبغ من أولادهم في الشعر والغناء، وفيه محاسن ما قيل من الشعر في الجاهلية والإسلام، وما قيل في العصر العبّاسي، وفيه وصف لمآكل العرب ومشاربهم، وزواجهم وطلاقهم، ونواديهم وملاعبهم، وحاناتهم والمتردّدين عليها من القصّاصين والمضحكين وسائر أحوالهم.

8- كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب:

صاحبه هو شهاب الدين أحمد النويري **(677- 733هـ) (1278- 1332م).** يمثل هذا الكتاب موسوعة لمعارف المسلمين في شتّى ميادينهم حتى أواسط القرن 08هـ (أواخر القرن 13م). وهو كتاب ضخم يقع في 32 جزءا قسّمه النويري إلى 05 موسوعات أساسية سمّها فنونا، وجعل كلّ فنّ منها في خمسة أقسام فرعية سمّى كلّ قسم منها بابا. والفنون الخمسة هي: الأول: في السّماء والآثار العلوية، والأرض والآثار السفلية، والثاني: في الإنسان، والثالث: في النبات، والرابع: في الحيوان، والخامس: في التاريخ.

ثالثا: أمهات أخرى:

يمكننا القول أنّ هذه هي أهم أمهات الكتب الأدبية في تراثنا الأدبي القديم. وتبقى المكتبة العربية القديمة زاخرة بالكثير من هذه المؤلفات منها: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبي الفرج الأصبهاني، خزانة الأدب وغاية الأدب لتقي الدين أبي بكر علي الحموي، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني[2]، زهر الآداب وثمرة الألباب لأبي إسحاق ابرهيم بن علي القيرواني الحصري (453هـ) (04 ج)، المستطرف في كلّ فنّ مستظرف لأبي الفتح الأبشيهي، وغيرها

[2]- ويعد أحد أقدم الكتب الأندلسية ظهورا للنور، وهو موسوعة تاريخية مهمة في دراسة التاريخ والأدب والجغرافيا الخاصة بالأندلس. وجاء الكتاب على جزأين، جزء يتحدث عن الأندلس والمدن الأندلسية وسكانها، ووصف مناخها وتوضيح مساحتها وتحديد أراضيها وأول من سكنها، ووصف سكان الأندلس وحبهم للعلم والأدب وسلوكياتهم وخصوصياتهم الاجتماعية، والشأو البعيد الذي بلغوه في مجال العلوم والآداب. والجزء الآخر عن أخبار الوزير ابن الخطيب.